الفصل الرابع

جهاده سنة (١٨٩٥م)

كانت سنة (١٨٩٥م) من أهم سني جهاد الفقيد في مرحلته الثانية، وعلى أنها أولى سنوات هذه المرحلة الكبيرة، فإنها حفلت بأعمال جليلة دلت على مبلغ إيمانه واضطلاعه بمهمته السامية.

حديثه مع الكولونيل بارنج

بدأت أعماله في تلك السنة بنشر حديث له مع شقيق اللورد كرومر، وهو الكولونيل «بارنج» على ظهر الباخرة التي أقلته عند عودته إلى مصر، إذ التقى به وانتهز فرصة مقابلته إياه ليرفع صوته بالدفاع عن استقلال مصر، ونشر هذا الحديث بعد عودته إلى مصر[1]، وخلاصته أن الكولونيل بارنج يرى ضرورة بقاء الاحتلال، وأن الفقيد يرى ضرورة الجلاء، وأنه حق لمصر وواجب على إنجلترا وفاقًا لعهودها واحترامًا لمواثيقها، وقد سأله الكولونيل بارنج خلال الحديث من للمصريين من الأنصار أو السفراء في أوربا يعتمدون عليهم في قرب تحقيق الجلاء؟ فقال الفقيد:

«لنا أوربا بأسرها التي تناديها صوالحها العديدة بأن تنصرنا نصرة تلك الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض أركانها، على أنها إن لم تنصرنا، فإن لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة ما نبلغ بهما إلى ما نصبو من حرية واستقلال».

وقد نشر هذا الحديث في «الأهرام»، فكان لنشره دوي كبير في المحافل الوطنية.

---

(١) «الأهرام» عدد ٢٨ يناير سنة (١٨٩٥م).

نشر الدعوة الوطنية

وقد استمر الفقيد في دراسة الكتب التي وضعت في المسألة المصرية، وأخذ يراسل الأهرام والمؤيد وينشر فيهما المقالات الوطنية، وكثر معارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته، وأخذ يتصل بهم ويباحثهم في شئون مصر، ويحثهم على مقاومة الاحتلال؛ فاتسع نطاق المعارضة، وتعرف إلى كثير من الأشخاص البارزين في المجتمع من الكتاب والأدباء، وأعضاء مجلس شورى القوانين والأعيان، وكان يسافر كل أسبوع أو أسبوعين إلى الأقاليم تلبية لنداء مواطنيه ويبث دعايته بين الأعيان، فكان لجولاته هذه أثر كبير في ازدياد أنصاره.

احتجاجه على تأليف المحكمة المخصوصة

وفي ٢٥ فبراير من تلك السنة استصدر اللورد كرومر من الحكومة المصرية مرسومًا بإنشاء (المحكمة المخصوصة) لمحاكمة من يتهم من الأهالي بالتعدي على ضباط وجنود جيش الاحتلال بمصر، وهي المحكمة التي صار لها شأن كبير في حادثة دنشواي المشهورة كما سيجيء بيانه. وينص المرسوم على تأليفها برياسة وزير الحقانية، وعضوية المستشار القضائي (الإنجليزي)، وقاض إنجليزي من محكمة الاستئناف الأهلية، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء في جيش الاحتلال البريطاني بالقاهرة أو الإسكندرية؛ أي أنَّ الغالبية فيها للإنجليز وقد جعلوا لها نظامًا خاصًّا، فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات.

كان إنشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصري وتثبيت لأقدام الاحتلال، فتقدم الفقيد جميع المصريين بالاحتجاج على تأليف هذه المحكمة الشاذة التي أثارت سخط الأمة، ونشر احتجاجه في جريدة الأهرام[1] تحت عنوان (صواعق الاحتلال).

---

(١) عدد ٤ مارس سنة (١٨٩٥م).

حضور النائب الفرنسي دلونكل (مارس سنة ١٨٩٥م)

وفي مارس من تلك السنة جاء مصر نائب شهير من أعضاء البرلمان الفرنسي وهو المسيو «فرانسوا دلونكل»؛ للاطلاع على حالة مصر السياسية، وكان الفقيد قد تعرف به بباريس في صيف سنة (١٨٩٤م)، إذ كان يؤدي امتحان الحقوق، وعرف عنه معارضته للسياسة الإنجليزية، وبخاصة في الشرق، وقرأ مقالاته في الصحف الفرنسية ومناقشاته المهمة في مجلس النواب الفرنسي عن المسألة المصرية، فعنى بإحاطته بكل صنوف الحفاوة ليكون في حضوره والحفاوة به مظاهرة قومية ضد الاحتلال الأجنبي، فسافر إلى الإسكندرية مساء الخميس ٢١ مارس سنة (١٨٩٥م) لاستقباله، والتقى به على رصيف البحر في صبيحة اليوم التالي، يصحبه كثير من الوطنيين، وقدم له ولقرينته جميع إخوانه المصريين، وكان للنائب القادم مكانة رفيعة في نفوس الفرنسيين، فكان في استقباله قنصل فرنسا في الثغر مع موظفي القنصلية وكثير من النزلاء الفرنسيين، وقد رافقه الفقيد في كل روحاته وغدواته بمصر، وكان يقدم له إخوانه ومعارفه من الوطنيين.

وقد أقيمت الحفلات والولائم للمسيو دلونكل، ومكث بمصر زهاء عشرين يومًا، ألفى في خلالها عدة خطب طعنًا في السياسة البريطانية، وأقام بالقاهرة وليمة بفندق (نيو أوتيل) قبيل رحيله إلى فرنسا دعا إليها لفيفًا من الصحفيين الوطنيين، ألقى فيها الفقيد خطبة بالفرنسية شكره فيها على دفاعه عن القضية المصرية، وبارح النائب الفرنسي الإسكندرية قاصدًا فرنسا يوم السبت ٢٣ إبريل سنة (١٨٩٥م).

سفر المترجم إلى باريس
ودعايته للقضية المصرية في أوربا (مايو سنة ١٨٩٥م)

رأى مصطفى أن الدعاية للقضية المصرية في الخارج من أمضى الأسلحة في مجاهدة الاحتلال؛ لأن المسألة المصرية كانت مجهولة للرأي العام الأوربي؛ بل كانت

الفكرة الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال، وأنهم أمة قانعة بالحكم الإنجليزي، ليست لها آمال ولا حقوق تطالب بها، فنشط إلى تعريف الرأي العام الأوربي بحق مصر في الاستقلال، وبأن الأمة المصرية تكره الاحتلال، ولا ترضى به بحال، وأن بقاءه لا يضر بمصر فحسب؛ بل يضر بالمصالح الأوربية عامة، وقد كان لدعايته أثر كبير في إحراج مركز الاحتلال، وإبراز عدم مشروعيته، كما كان لها صداها في مصر ذاتها؛ إذ كانت وسيلة لنشر الحركة الوطنية، لذلك كانت دعايته في أوربا من أهم صفحات جهاده الوطني، وكانت في الوقت نفسه من دلائل عبقريته؛ لأن اتصال شاب في سنة بأقطاب السياسة في أوربا من كتاب وسياسيين وأدباء وصحفيين، واستطاعته الدفاع عن القضية المصرية على صفحات الجرائد الأوربية، كل ذلك ليس من المهام السهلة التي يضطلع بها كل من يريد، وإنما هو عمل شاق يتطلب استعدادًا وكفايات متعددة وجهودًا هائلة، إذا اجتمعت في شخص واحد كان ذلك آية عبقريته، ولا غرو فهو أول مصري أسمع العالم صوت مصر، وعرف الرأي العام الأوربي من مقالاته وأحاديثه وخطبه أن على ضفاف النيل أمة تشكو الاحتلال وتطلب الحرية والاستقلال.

كان الفقيد أول من فكر في وجوب الدعاية لمصر في الخارج، وأول من أدى هذا الواجب الكبير؛ قال في هذا الصدد في كتاب له نشر بجريدة المؤيد[1].

«إن عقلاء الإنجليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولته ولا ينقصهم غير معرفة إحساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها وحقائق الأمور حتى يقيموا القيامة على حكومتهم، ويسألوها الجلاء عن وادي النيل، فأجل عمل يأتيه المصريون اليوم هو نشر الحقائق في أوربا بأكثر اللغات انتشارًا خصوصًا باللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذي في خدمته خدمة الحق، وفي نصرته نصرة الفضيلة والحقيقة والسعادة والقومية».

(١) عدد ٥ أغسطس سنة (١٨٩٥م).

سافر المترجم إلى فرنسا في مايو سنة (١٨٩٥م)، وقصد إلى باريس ليرفع فيها صوت الوطن، وهناك اتصل بكثير من رجال السياسة والصحفيين ليعاونوه في أداء رسالته، كتب في هذا الصدد إلى شقيقه «علي بك» كتابًا من باريس قال فيه: «إني الآن أقضي ليلي ونهاري في مخالطة كبار السياسيين لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين، ورأيت من الجميع استعدادًا لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها على بساط المناقشة من جديد، وإني أجد من نفسي قوة في هذه الأيام ما وجدتها في حياتي، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويًّا حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة، بيد أني أشعر من جهة أخرى بأن البلاد في حاجة لرءوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب للبعيد بما تحدثه في العالم من تأثير ولي الأمل أن ينتشر الشعور في البلاد بسرعة، فإنه هو وحده رأس مال محرري الأمم والشعوب، وبدونه لا يستطيع خادم مهما كانت أمانته وقوته أن يصل إلى الغرض المرجو، ولذلك يجب على أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر بما لديهم من ضياع شاسعة وأراض واسعة أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس من الدين القويم والتربية السليمة، وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة، ومهرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة في خدمة قطر هو أثمن وأغلى الأقطار».

وكانت مهمة مصطفى في رحلته شاقة؛ لأن صغر سنه وتقدمه أعلام مصر البارزين وقتئذ في حمل علم الجهاد بأوربا، جعل الكثيرين منهم يحيطون مهمته بالتشكيك في نتيجتها والتهوين من شأنها، كتب صديقه فؤاد بك سليم (باشا) يصف موقفه وقتئذ بقوله[1]: «إنما الأعمال بالنيات، حياة طيبة أو موت شريف، هذه كانت إحساسات الشاب مصطفى كامل ودواعي سفره، بارح القطر المصري في أول شهر مايو الماضي (سنة ١٨٩٥م) قاصدًا أوربا، نائبًا عن أهله وأحبابه، مضحيًا نفسه وكل ما تملك يداه في سبيل خدمة وطنه والمدافعة عن حقوق أُمته، فإن كان

(١) «المؤيد» عدد ٣١ يولية سنة (١٨٩٥م).

صغر السن كل ما يؤخذ عليه، فليس ذلك ذنبه، وإن لم يكن من الطبقة الأولى في مصاف الأمة فإنما نهضته تشرفه».

نداؤه إلى مجلس نواب فرنسا (يونية سنة ١٨٩٥م)

ابتكر مصطفى طريقة للدعاية للقضية المصرية كانت أقوى أثرًا من مئات المقالات يكتبها في الصحف أو عشرات الخطب يلقيها في المحافل، وكانت مادة لنشر المقالات الجمة عن المسألة المصرية؛ ذلك أنه وضع نداء إلى فرنسا في شكل صورة رمزية سياسية قدمها إلى مجلس نوابها تمثل مصر ترسف في قيود الاحتلال وتستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها، كما عاونت أمريكا وإيطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حريتها من قبل، وجعل في ذيلها ثلاثة أبيات كتبت بالعربية وكتبت أمامها ترجمتها بالفرنسية، ولم يكن الفقيد شاعرًا يقرض النظم؛ ولكن وطنيته ألهمته وضع هذه الأبيات التي تبدو عليها الفطرة وعدم التكلف، وهي:

أفرنسا يا من رفعت البلايا ... عن شعوب تهزها ذكراك

انصري مصر إن مصر بسوء ... واحفظي النيل من مهاوي الهلاك

وانشري في الورى الحقائق حتى ... تجتلي الخير أمة تهواك

وضع مصطفى الصورة وطبع منها عدة آلاف من النسخ، وذهب هو وستة من إخوانه المصريين الذين كانوا مقيمين بباريس إلى سراي مجلس النواب يوم الأربعاء ٤ يونية سنة (١٨٩٥م) لتقديم الصورة والكتاب المتصل بها، فقابلهم «المسيو بريسون» رئيس مجلس النواب، وتسلم منه الكتاب والصورة، وأبدى عطفه على الأماني القومية المصرية، وأرسل مصطفى عقب المقابلة نسخًا من الصورة والكتاب إلى جميع صحف العالم، كما وزعها على جميع النواب والصحفيين والسياسيين في فرنسا، وأرسل الآلاف منها لتوزيعها في مصر، وهذا نص الكتاب.

حضرة الرئيس:

«إني بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذي أنت له نعم الرئيس هذا اللوح الذي يمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها، وإن هذا اللوح ليمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عامًا، ولقد برهنت الأمة المصرية يا حضرة الرئيس مع ما يعتورها من المصائب الشديدة على سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الأمم الأوربية، ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا. هذه الدولة العظيمة التي أعلنت حقوق الإنسان، والتي سارت به منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية، جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التي حررت عدة من الأمم فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها؟

وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الإسلامي الواثق بها؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها، فلتحيى فرنسا محررة الأمم».

كان لهذا العمل دوي هائل في أوربا وفي مصر؛ لأنه نداء غير مألوف من أمة كان الظن الغالب أنها راضية بالاحتلال، وقد نوهت بذلك جميع الصحف الفرنسية وكثير من الصحف في أوربا وأمريكا، فكان هذا النشر أكبر دعاية للقضية المصرية.

الصورة الرمزية التي قدمها مصطفى كامل
إلى مجلس نواب فرنسا – يونية سنة ١٨٩٥

وأهمية هذا العمل أنه لفت أنظار العالم إلى المسألة المصرية. وفي الحق أن هذا النداء كان أول صوت للشعب المصري دوَّى في أوربا عقب الاحتلال مطالبًا باستقلال مصر وحريتها، ولم يكن ممكنًا أن يرتفع صوت مصر بأكثر ولا أقوى مما ارتفع وقتئذ بهذا النداء. وتناقل صداه في الصحف إلى جميع الآفاق؛ فلقد كان استصراخًا للإنسانية يشبه استصراخ بولونيا للعالم إبان محنتها القومية. وإن دعاية الفقيد للقضية المصرية في أوربا بهذه الهمة وهذا الإقدام –وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره– لأكبر مظهر من مظاهر عبقريته، فإن العمل الذي اضطلع به

وحده قد تنوء به الجماعات والأحزاب، وقد لفت هذا العمل أنظار المصريين إلى شجاعة هذا الشاب وعلو همته، ودهشوا لجرأته؛ إذ نهض لمقاومة الدولة المحتلة في وقت كان أغلب كبراء مصر وعظمائها خاضعين للقنصل البريطاني العام، فهذه الشجاعة التي بدت من مصطفى قد حببته إلى نفوس المصريين وأخذ نداء الوطنية والاستقلال يلقى فيهم ملبيًّا وسميعًا.

حديثه في جريدة الجورنال (يولية سنة ١٨٩٥م)

وقد نشرت له جريدة (الجورنال) الفرنسية وهي من أوسع الصحف انتشارًا حديثًا سياسيًّا عن مصر والمسألة المصرية، كان له تأثير كبير في تبصير الرأي العام بمساوئ الاحتلال البريطاني، وعلقت عليه جريدة (الإكلير) الفرنسية بقولها:

«لا بدَّ أن سيكون لمصطفى كامل المصري دور مهم في المسألة المصرية؛ لأن أسلوبه السياسي قائم على الصراحة والحق، فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الإنجليزي الذي كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس».

مصطفى كامل في الحادية والعشرين من عمره

خطبته في تولوز

أول خطبة سياسية له في أوربا (يولية سنة ١٨٩٥م)

لم يكتف الفقيد بجهاده بقلمه في الصحف؛ بل عمد إلى الخطابة في المحافل، فأقام اجتماعًا يوم (٤ يولية سنة ١٨٩٥م) بمدرج كلية الآداب في تولوز[١] التي نال منها شهادة الحقوق، دعا إليه بعض أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين والكتاب وذوي الرأي فيها، وألقى بالفرنسية خطبة مسهبة، هي أول خطبة سياسية لمصري في

(١) بشارع ريموزا.

أوربا ذكر فيها اعتداء الاحتلال على حقوق مصر واستقلالها، وأبان مبلغ نقض إنجلترا لعهودها في الجلاء، وتغلغلها في شئون مصر الداخلية في مختلف الوزارات، واستنجد بأوربا وفرنسا لمعاونة مصر في استرداد استقلالها، وشكر المدعوين على عطفهم على القضية المصرية[١]، فأعربوا له عن عواطفهم نحوه ونحو مصر؛ قال رئيس تحرير جريدة (الدبيش) التي تصدر في تولوز في هذا الصدد:

«إني واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوبة سيغرس لا محالة بعمله بذور الوطنية الصالحة حتى يقضي الشعب المصري لبانته، ويسمع يومًا الحكم له على إنجلترا، ولذلك أدعو زملائي أصحاب الصحف إلى تهنئة زميلنا الشاب الغيور منذ الآن».

ولقد كان لهذه الخطبة أثر كبير في فرنسا؛ لأنها جاءت صدى للوطنية الصادقة التي يحترمها الجميع في فرنسا.

في فيينا (يولية سنة ١٨٩٥م)

لم يقتصر مصطفى على الدعاية للقضية المصرية في فرنسا؛ بل قصد النمسا ونزل بفيينا عاصمتها في يولية سنة (١٨٩٥م)، واتصل بكبار الصحفيين والسياسيين، وأخذ ينادي بحق مصر في الاستقلال ويدافع عن كرامتها وحريتها.

كتبت جريدة (إكسترا بلاط) في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ يولية سنة (١٨٩٥م) تقول:

«إن في فيينا اليوم ضيفًا كريمًا هو «مصطفى كامل» أحد كتاب مصر الفضلاء، وهو شاب حاد الفكر، بعيد النظر، اشتهر اسمه في وطنه وفي أوربا أخيرًا، وهو الآن يجوب القارة الأوربية مطالبًا باسم الوطنيين المصريين بتحرير بلاده من ربقة

(١) نشر «المؤيد» خلاصتها عدد ١٠ و١٣ يولية (١٨٩٥م)، وطبعت بالفرنسية في رسالة مستقلة في عشرين صفحة.

الاحتلال الإنجليزي، وبدهي أن الأمة التي ينتسب إليها هذا الكاتب الشرقي قد استحقت بما أفادته من معاهد المدنية وبما لها من الذكاء الفطري النادر المثال أن تعد في مصاف الأمم المتمدنة؛ فهي بذلك لا ترضى أن تكون تحت سيطرة حكومة أجنبية تعمل في مصر كل ما تريد».

وكتب عنه مراسل جريدة (الستاندرد) الإنجليزية في فيينا ما يأتي: «جاء مصطفى أفندي كامل وهو قانوني ومحرر جريدة إلى فيينا، وأقام فيها عدة أيام، وقد جال في كثير من أنحاء أوربا نائبًا عن جمعية وطنية في مصر تسعى لتحرير بلادها من نير الإنجليز وبذل جهده في استمالة الدوائر الرسمية إلى آراء وأفكار هذه الجمعية الوطنية».

رسالته في أخطار الاحتلال البريطاني

عاد الفقيد إلى باريس في (٨ أغسطس سنة ١٨٩٥م) ونشر رسالة بالفرنسية بتاريخ (١٤ أغسطس) عن (أخطار الاحتلال البريطاني) أبان فيها خطر الاحتلال على حقوق مصر، ثم على المصالح الأوربية عامة، وقد وجه فيها الخطاب إلى الرأي العالم الأوربي ليكسب تأييده للقضية المصرية[1]، وقد طبع هذه الرسالة وبعث بها إلى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة في أوربا، فكان لها دويٌّ كبير، وجاءه نحو مائة جواب من مشاهير السياسيين في فرنسا وغيرها يعلنون له فيها شكرهم وتهنئتهم.

أحرار في بلادنا ، كرماء لضيوفنا

وفي هذه الرسالة قال كلمته الخالدة عن شعار مصر ومعاملتها لنزلائها الأجانب (أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا).

(١) نشر «المؤيد» تعريبها في عدد ٢٨ أغسطس (١٨٩٥م).

والرسالة تتضمن شرحًا وافيًا للمسألة المصرية، وتدل على واسع اطلاعه على تاريخها ودقائقها، كما تدل على نضجه الفكري وبعد نظره السياسي، وحسبك دليلًا على قيمتها ما كتبته عنها مدام «جولييت آدم»، فقد قدمها إليها عند ما تعرف بها، فنشرت عنها في جريدة (البتي مرسلييه) الفرنسية بتاريخ (١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٥م) كلمة ثناء قالت فيها:

«إنَّ هذا العنوان (أخطار الاحتلال البريطاني) علم على رسالة صغيرة الحجم لا يتجاوز عدد صفحاتها الاثنى عشر صفحة، كتبها مصري وطني يحب بلاده حبًّا شديدًا، وقد جاء ليدافع عنها إذ رآها فريسة أغراض الأجنبي، وأودع هذه الرسالة كل ما ينتجه الفكر السليم والتبصر القائم على أدلة وحجج تفحم الذين جعلوا العمى مذهبًا لهم أو تنير ما أشكل عليهم، والعنوان الثاني لهذه الرسالة الصغيرة الحجم الكبيرة الأهمية هو (نتائج الاحتلال الإنجليزي لمصر)، وهو لا يلم بموضوع إلا وفَّاه حقه وزيادة، وقد قرأت منذ واقعة (التل الكبير) ما كتب عن مصر في إنجلترا وفرنسا ومصر نفسها، فلم أر قط المسألة المصرية موضوعة أحسن من هذا الوضع ولا مستنتجة نتائجها أحسن من هذا الاستنتاج، ولا مرتبة أجمل من هذا الترتيب، ولا مبسوطة بتعقل وتدبر مثلما بُسطت في هذه الرسالة».

تعرفه إلى مدام جولييت آدم (سبتمبر سنة ١٨٩٥م)

إن تعرف المترجم إلى مدام جولييت آدم هو حادث مهم في حياته السياسية والقومية، فإن مدام آدم هي من أعظم شخصيات فرنسا في عالم الوطنية والسياسة والأدب، وهي الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبي في فرنسا، وكان مشاهير الرجال من نواحي الأرض يرحلون إليها، ويجتمع بدارها العلماء والأدباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة.

ولدت «مدام آدم» سنة (١٨٣٦م)، وتوفيت سنة (١٩٣٦م)، أي أنها عمَّرت مائة عام، وهي من أعظم من أنجبتهم فرنسا علمًا وأدبًا ووطنية ومكانة سامية،

وظلت موضع احترام مواطنيها طول سني حياتها، وقد وضعت سنة (١٩٢٢م) كتابًا قيمًا عن مصر أسمته (إنجلترا في مصر)، وهو من خير ما ألف في المسألة المصرية.

وقد سعى الفقيد سنة (١٨٩٥) إلى التعرف إليها؛ إذ أرسل إليها من تولوز أول كتاب له في (١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥م)، ننشره هنا لأنه يصور لنا مقدار وطنيته ويصف مبلغ إيمانه برسالته القومية الكبرى في أفصح عبارة وأبلغ بيان؛ قال:

«سيدتي:

إني لا أزال صغيرًا، ولكن لي آمالًا كبارًا؛ فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون إن وطني لا وجود له؛ وأنا أقول يا سيدتي: إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود في سبيله بجميع قواي، وأفديه بشبابي، وأجعل حياتي وقفًا عليه.

إني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة، وقد نلت إجازة الحقوق من تولوز قبل سنة، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما في سبيل الوطن العزيز، وقد قيل لي أكثر من مرة أني أحاول محالًا، وحقيقة تصبو نفسي إلى هذا المحال، فأعينيني يا سيدتي، فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولي وتقوية عزمي وشد أزري، وتقبلي تحية واحترام»[1].

مصطفى كامل

(١) «رسائل مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم» ص٧.

مدام جولييت آدم

وأرسل لها ضمن كتابه رسالته عن (أخطار الاحتلال البريطاني على مصر)، فلبت مدام آدم نداءه، وكتبت إليه ترحب بدعوته، فجاء وقابلها، وما أن عرفته وأدركت سمو آماله في تحرير بلاده حتى ازدادت به إعجابًا، وتوثقت بينهما من ذلك الحين أواصر الاتصال الروحي؛ إذ كان الفقيد يعدها أمًّا روحية له، وقد عرَّفته بكبار السياسيين وأصحاب الصحف والمجلات في فرنسا؛ قالت تصف تعرفها به:

«أعجبتني كثيرًا هذه الرسالة (أخطار الاحتلال البريطاني) فأنشأت في الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة (١٨٩٥م) مقاله عنها، واقتبست منها أسانيد جديدة في المسألة المصرية، وقد سبق لي الخوض فيها كثيرًا، وأثبتت على المؤلف في مقالتي، فورد إلي منه خطاب شكر جزيل، ومن ورائه خطاب آخر من باريس يسألني فيه أن

أضرب موعدًا للقائه، فسرعان ما أجبته إلى ذلك، وواعدته دار «لا نوفل ريفو»[١] (المجلة الحديثة)، فأقبل عليَّ شاب خلته ابن ثمان عشرة سنة، فقلت له ضاحكة: ما صدقتني سنك، فإنك لم تبلغ الحادية والعشرين. فقال: قد بلغتها يا سيدتي وأكملتها. وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث رأيت أن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده ونضج قبل أوانه، ورأيت قد أطال التدبر والتروي في إمكان مصيره، كما يقول خطيب مصر، ورأيت أغراضه الجسام محالة وممكنة معًا، فإنه مع انقطاع المعين له حقيقة وحكمًا؛ لأنه غير معول إلا على شبان مثله لا مال لهم، كان يحدث نفسه بإنشاء جريدة ومدرسة، ولا أدري بماذا كان يحدث نفسه أيضًا، وربما لاح لغيري أن هذا الشاب إنما كل زاده أوهام وأحلام، ولكن جاء كتيبه دالًّا على أنه حقيقة، هذا ولشدة بغضي لإنجلترا وحبي لمصر كنت أرتقب وأتوقع منذ سنين قومة قائم في وادي النيل، وكانت ثقتي دائمًا بذوي القول السديد الذين يرسلهم الله في الوقت المناسب ليزرعوا الحب الصالح في النفوس التي ظلت زمنًا طويلًا بورًا، لقد فقه مصطفى كامل وأدرك بواطن الأطماع والدسائس الإنجليزية، وكان يتكلم عنها كأنه سياسي مسن متعود البحث عن أسباب الأمور، كفء لأن يحل ببطء ولكن بدون أن يخطئ العقد التي أحكمت عقدها مهارة عاقديها، أو ليست مساعدة وطني شاب على أن يجاهد ويؤدي مهمة عالية أحد الأغراض التي التزمت توخيها منذ أنشأت جريدتي (لانوفل ريفو)؟ فقلت لمصطفى كامل: ضع يا ولدي مقالة في إحدى المسائل الخاصة بمصر وامض فيها واسترسل استرسالًا بغير تقيد؛ فإنه لا يضرني منك ثورة الشباب ولا حدة اليقين.

ومن عهد تلك المحادثة أخذت أؤدي لمصطفى كامل وظيفة الأم، فعرفته بجميع الرجال الأكابر الذين قد يعنيهم شأن مصر، وأوليته من حب الأم جميع منازل أبنائي المتقدمين عليه الذين كان يختص بالمعزة منهم: بييرلوتي والكولونيل

(١) المجلة التي كانت تديرها مدام جولييت آدم.

مارشان، وإرنست جوديه، وأوجدت له في آنٍ واحد علاقات نفسية في عالم الصحافة الفرنسية، تلك العلاقات التي عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة في دعواه الشريفة، وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة في جميع البلدان الأخرى حتى في إنجلترا نفسها».

واستمرت الصلة بين الفقيد ومدام جولييت آدم تقوى على مر السنين، ويدلك على مبلغ تقديره إياها ما كتبه عنها في (٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٢م) حين أهدته كتابها (طفولتي وشبابي) إذ قال:

«إذا كان يحق لكل إنسان محب لبلاده أن يحيي هذه السيدة تحية الإعظام والإعجاب، فمن الواجب الحتم علي -وأنا من خدمة بلادي العزيزة- أن أُعْرب لها عن مزيد إعجابي بعملها وبكتابها، وأن أشرك الجمهور معي ليشكرها على حبها لمصر وثقتها بوصول أمتنا المحبوبة في مستقبل الأيام إلى ما تبتغي من سؤدد وحرية واستقلال»[1].

وقد زارت مدام آدم مصر سنة (١٩٠٤م) ملبية دعوة الفقيد، فاستقبلها بالحفاوة والإكرام، كما سيجيء بيانه في الفصل التاسع.

حديثه في جريدة (الإكلير) الفرنسية

اتصل المترجم وهو في باريس بكثيرٍ من السياسيين والصحفيين الفرنسيين ليضمهم إلى صف القضية المصرية، وقد حدث أن قررت الحكومة المصرية في أواخر أغسطس سنة (١٨٩٥م) إلغاء البعثة المصرية إلى فرنسا، فقصدت إليه جريدة (الإكلير) الفرنسية الكبيرة، ونشرت له حديثًا بالعدد الصادر في (٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥م) حمل فيه على الاحتلال وسياسته وبخاصة في التعليم، قدمت له بقولها:

(١) «اللواء» عدد ٢ سبتمبر (١٩٠٢م).

«ورد علينا في الأسبوع الماضي تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف في مصر قررت إلغاء الإرسالية المصرية في فرنسا، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا في مصر، فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى (مصطفى كامل) وهو الكاتب والخطيب المصري الذي اشتهر اسمه في باريس؛ لأن آراءه في مثل هذه المسألة يعول عليها»[١].

وقد كان لهذا الحديث تأثير كبير في فرنسا، وتناولته الصحف الفرنسية، وكان موضع اهتمامها، ونشرت له جريدة (الجولوا) حديثًا له في شئون مصر السياسية، وأخذ ينشر المقالات في مجلة «لانوفل ريفو» وهي مجلة مدام جولييت آدم.

خطبته في الجمعية الجغرافية بباريس (ديسمبر سنة ١٨٩٥م)

وألقى في الجمعية الجغرافية بباريس يوم (١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥م) خطبة كبرى بالفرنسية موضوعها (الاحتلال الإنجليزي في مصر)، وذلك في اجتماع حافل حضره مشاهير السياسيين والكتاب والعلماء والنواب في فرنسا، وكثير من نزلاء باريس؛ فقوبلت بالتصفيق والاستحسان، واقتبست الصحف الباريسية كثيرًا من فقراتها. ومما يذكر عن هذا الاجتماع أن مصطفى كامل دعا إليه ضمن من دعاهم الفيلسوف الفرنسي الشهير (جول سيمون) وكان يبلغ وقتئذ الحادية والثمانين من عمره[٢]، فأرسل إليه كتاب اعتذار قال فيه: «إن كبر سنه وهو في الحادية والثمانين يمنعه من الحضور؛ ولكنه لا يمنعه من أن يقول: إنه أكثر الناس حبًّا لمصر واهتمامًا بشأنها».

(١) «المؤيد» عدد ٢٣ سبتمبر سنة (١٨٩٥م).

(٢) ولد سنة (١٨١٤م)، وتوفي سنة (١٨٩٦م).